

مناقشات

رأي في قصص العدد الاسبق

جودت فخرالدين

١) عندما تبكي الالوان :

« عندما تبكي الالوان » اربع قصص لزين العابدين الحسيني تنطوي على هم مشترك ، وهو رؤية الحرب اللبنانية عن طريق التوجس لجوهرها المأساوي الذي يمكن أن يجعل منها بشكل من الأشكال انفجارا يمد بالتحول والتغيير ، والفصص الاربع ، « المهزوم » ، و « المشاجرة » ، و « الوهم » و « المصق » التي كتبت في زمن الحرب تمكس لنا بعض صورها محاولة تخطي الحدث المباشر للفاذ الى ما وراءه من أحلام واوهام .

وهذه القصص متشابهة في بنائها الفني وتطورها وحركتها الداخلية ، كما تلتزم كلها بشروط القصة القصيرة في رسمها للشخصيات وفي تساوق احداثها ضمن محدودية الزمن . ففي قصصه ، يقدم لنا الكاتب أناسا يعيشون الحرب يوميا ، وتفعل الحرب فعلها المباشر في نفسياتهم وتصرفاتهم ، حتى انه يمكننا القول ان زين العابدين قدم لنا في القصص الثلاث الاولى شخصية واحدة ، هي تلك التي يتنازعها الحزن والخوف والوهم واهيانا الانهزام ، وقد اكتسبت هذه الشخصية مواصفاتها تلك تحت تأثير الحرب واشكالها الرهيبة التي لم تكن وعدا وانما كان مجيئها كالفجاءة او الفدر . وعلى ذلك تبدو هذه الشخصية واقعية الى حد كبير كونها نتاجا طبيعيا لظروف الحرب الصعبة .

هذه الشخصية تتخلى عن بعض صفاتها وتكتسب ملامح أخرى في القصة الرابعة « المصق » ، حيث يقدم المؤلف المقال الذي يتعامل مع الحرب بكل جدية وصرامة ، الذي يرفض الزيف والمساحيق ولا يتكلم كثيرا ولا يضحك ، ولا ييوح بأسراره ولا حتى باسمه . وهذا المقاتل هو سليل أسرة فقيرة ، كان قد ولد ونشأ في غرفة تنكية ، ومن خلال هذه الشخصية ، يتخذ الكاتب موقفا ايجابيا في تعامله مع الحرب على اساس انها تحتوي على مضامين ثورية طالما انها تتخذ شكل التناحر الطبقي .

اما حركة الزمن داخل هذه القصص فانها تتشابه في تطورهما داخل النص ، وبشكل مجعوعهما من لحظات متوترة تنتهي في نهاية القصة باللحظة الفاعلة او الحاسمة ، والتي يفتتح بعدها الافق تاركا للتوقعات مجال الاحتمال والحدوث ، ناخذ مثلا على ذلك

نهايه « المشاجرة » : « فيما كان اللون الوردي يبيض في وجهها الى الابد ، اربس جناها فانهمرت دموع غزيرة من اعينين الصليتين في حين ظل جسدها ساكنا تماما » .
هكذا يبدو قصص زين العابدين الحسيني نحيفا لبعض اللوحات التي اسمدتها من واقع الحرب اللبنانية وتفاذا اتي جوهر هذه الحرب المأساوي الذي يفتح من حيث دلالاته الاجتماعية والطبية باب الامل واسعا .

٢ - لانك لو تعلم ... :

ريف فتوح في قصتها « لانك لو تعلم » نحاول هي الاخرى ان ترى الى الحرب اللبنانية عن طريق اضاءة جانب من جوانبها ، فتعمد الى ذلك الجانب الشيع الذي نجلى في القتل وتشويه الجثث ، تصور لنا القصة حالة امرأة تكلى ففدت حبيبها وشوخته الحرب فكان عليها ان تتعرف على جثته ، واذ كانت اتكابة تصور في ذلك اشكال الحرب الهمجية ، فانها تتخذ موقفا ضد احد اطراف الصراع فيها ، فهي اذ تعلن بان « التاريخ هو تاريخ الشعوب » تدعي بذلك الفوى الفاسية والمنامرة على الشعب ، كما ان موقفها الايجابي يبلغ ذروته على لسان المرأة التي رفضت ان تقبل موت حبيبها واعلنت انها ما زالت بانتظاره وانه سيعود : « هات يدك وتكلم ، اني لا اصدق انك مت ، ولا احد يجعلني اصدق .. سنأتي وستصدق جيسر البيت ... » .

من خلال مشاعر هذه المرأة ، استطاعت الكاتبة ان تعبر عن مشاعر الكثرة من الناس الذين اسندفوا في الحرب اللبنانية وكانوا ضحايا لها ، كما انها تصيف الى ذلك تعابير عن الايمان بعدالة قضية الجماهير المقهورة : « لانك هكذا عبرت البحر ، لكنك لم تذهب ، فانا لو تعلم .. حامل ، والارض نعاة » .

بعد هذا الكلام على قصص زين العابدين الحسيني وريف فتوح ، نريد ان نقول - اضافة - بان الحرب اللبنانية بكل جوانبها وابعادها يمكن ان تكون هدفا لعمل روائي طويل ، اذ انها بكل مطياتها تضيق القصة القصيرة عن تناولها فنيسا ، وما قدمته قصص الكاتبين الحسيني وفتوح انها نجمت في الفاء انصوء على بعض جوانب هذه الحرب .

٣ - والآن من الذي قتل هذا الرجل :

قصة ابراهيم عبدالمجيد « والآن من الذي قتل هذا الرجل » تدور حول حادثة مقتل عبدالغني التي تتلخص في اصطدام اوتوبيس بترام على مقربة من الاشارة الضوئية في الميدان الذي كان يعبره عبد الغني اذ انه ضغط بين الاوتوبيس والترام . بعد ذلك لم يعرف بالضبط من هو المسؤول عن الخطأ الذي تسبب بوقوع الحادثة . وفي القصة نقص للحالات التي كانت تسيطر على الاشخاص الاربعة الضالعين بالحادثة وهم سائق الاوتوبيس وشرطي المرور وسائق الترام والقتيل .

سائق الاوتوبيس ، خطفت انتباهه فتاة كانت تجلس بمحاذاته ، وكان يتحسس فخذيها بيده ويحادثها ، وهكذا فقد وصل بالاوتوبيس الى مفارق الطرق واصطدم بالترام دون ان ينتبه الى الاشارة الضوئية ليرى ما اذا كانت مفتوحة ام مغلقة .

اما شرطي المرور ، المسؤول عن فتح الاشارة واغلاقها ، والذي كان منصرفا للتفكير بمسائل شخصية ، فكان - عند وقوع الحادث - قد استهواه ان يعيث فليلا بالاشارات ، فاخذ يضغط على الازرار دون مراعاة للوقت المناسب .

اما سائق الترام فكان منصرفا تماما للتفكير بقضية ابنه الذي اصيبت ذراعه في معركة العبور ، وحاول عبثا التوصل الى معالجتها ، اذ انه اتصل بعدد من المسؤولين دون جدوى حتى وصل اخيرا الى حالة من الياس والسخط .

اما القتيل عبدالغني ، فكان يسير هو وزميله عندما اصبحا في الميدان على مقربة من تمثال محمد علي باشا ، وكان محمد علي يعيش في ضمير عبدالغني رجلا جبارا ورمزا للبطولة ، وقد اعتاد على زيارة التمثال سابقا وكان يناجيه عندما نسي نفسه وسقط بين الاوتوبيس والتسرام .

بعد الحادث ، يتقصى الكاتب ردود الفعل لدى كل من الاشخاص الاربعة فيرى بان كلا منهم يحاول اسناد الخطأ الى الآخرين ، فسائق الاوتوبيس : « يشمر ان هناك خطأ ما ، وهو يشعر اكثر انه لم يخطئ ، وربما لاكثر من تسعين في المائة ، يكون الخطأ عند سائق الترام . اما ذلك الرجل الذي ضغط ، فهو لا شك مخطئ ، اذ ما الذي يجعله يعبر الطريق في هذا الموقع الخطر » . اما شرطي المرور فقد قال : « هل اصيب سائق الترام بعمى ؟ لماذا لا يكون الخطأ عند سائق الاوتوبيس » . اما سائق الترام فكان ما يزال في اللحظات التي تلت الحادث غارقا في همومه وذهوله . وحده القتيل كان يحافظ على وجه مبتسم ومسائل ومنطبق فوق الزجاج .

لقد توصل الكاتب من خلال عرضه لنماذج من الشخصيات الى ابراز بعض الخصائص التي تتحكم بالمسلك الشخصي لهذه النماذج ، والتي هي تمثيل لاسع الفئات في مجتمعنا . ان ابرز هذه الخصائص « الفردانية » التي تحصر اهتمامات كل فرد منا على المستوى الشخصي ، وتنتج عن هذه الخاصة خاصة اخرى تبدو جلية في القصة ، هي التنصل من المسؤولية في حالات الخطأ او الهزيمة والقاؤها على الآخرين ، وهاتان الخاصتان يمكن استنتاجهما في كل قطاع من قطاعات مجتمعنا العربي . من هذه الزاوية ، تبدو لنا قصة ابراهيم عبدالمجيد غوصا في اعماق الواقع وتحريا صادها لبعض صوره ، وبالتالي ادانة لبعض السليات التي تتجلى على المستوى الفردي ، ولا نغفل ايضا الطرافة وعامل الصدفة اللذين يجعلان من القصة عملا فنيا رشيقا .

٤ - السور :

قصة عبدالاله عبدالرزاق « السور » تعتمد على الرمز والابحاح في طرحها لقضية من اكثر قضايا مجتمعنا عمقا ودلالة على ضراوة الصراع الناشب بين فئاته على الصعيد الطبقي . في القصة اشارة

الى الحصار الذي تعاني منه الطبقات المكثورة وبالتحديد طبقة الفلاحين الذين يعيشون داخل اسوار من التضييق والفهر . واذا يلج الكاتب في هذه القضية عبر رموز عديدة (الحارس ، السور ، الضريح ..) فانه يعطي لفصته النهاية التي تتناسب مع منطقية التطور التاريخي والتي تجسد في انتفاضة الفلاحين واقتحامهم للسور ، يبقى ان القصة كانت بحاجة الى قليل من الشفافية لكي يتسنى لها الوصول الى جوهر القضية واضاءة ابعادها ، اذ ان الافراق في الرمزاضفى عليها وشاحا من الضبابية والتعقيد .

٥ - الوافد :

الفكرة الرئيسية في قصة « الوافد » لطاهر السقا هي ان الثروة التي تأتي بغير جهد تؤدي بصاحبها الى التماسه . وقد حاول الكاتب ان يوصل اليينا هذه الفكرة بطريقة لا تنجو من السطحية وتفنقر الى نفاذ في الرؤيا واحاطة بموضوع الثروة بكل ابعاده ، فقد تناول مسألة الفن على مستوى الافراد الذين يمكنهم ان يحصلوا على الثروة بطرق متعددة دون ان يعالج الموضوع من نواحيه الاكثر عمقا كان بيت في قصته وعيا لمعنى وكيفية امتلاك الثروات وما يتبع ذلك من دلالات اجتماعية . فالقصة تحكي عن مقامر حصل على مليون جنيه من مقامر آخر مقابل شيء لم يعرفه بالضبط واصبح حاجسه الدائم ، وبعد ان شك في زوجته قتلها معلنا انه مذنب ويستحق الموت . وقد اعتمدت القصة في تطورها على الحوار وحافظت على نوع مسن المنهجية في حركتها .

٦ - الرجل - الجذع ومسافره :

قصة « الرجل - الجذع ومسافره » لاندرية شديد والتي ترجمتها عن الفرنسية رنا ادريس تتناول في سياقها تالفا ينشأ بين مسافر ينتقل من مكان الى اخر حاملا حقييته واوراقه ، وبين رجل آخر ، مشوه ، مقطوع اللرايين ، لا يتجاوز طوله المتر الواحد ، ويظل قابسا على حصيرته في نفس المكان .

ذلك المسافر يعاني من الفربة والحيرة ، يصطحب اتعابه في سفاره الدائمة ، ويحضر احيانا سهرات او اجتماعات للعمال ، ودائما يسرع للقاء اليه الذي لا يفار مكانه ابدا ليقول له : « كيف حالك ؟ » فيرد عليه : « وانت » .

كان هذا الرجل محطة لاحزان وافراح ذلك المسافر ، لم يخفنه ابدا ، فكان يجد لديه المونل المفضل لبث شجونه ومشاعره .

واذا كانت القصة تعتمد على الرمز ، وتوغل فيه ، فاننا نستشف من خلالها رغبة ودعوة الى الخروج من حالة الاغتراب والتنقل الى حالة من الاستقرار والاطمئنان الى موقع محدد يلقي كل حيرة ونذبذب ، وتبدو هذه الدعوة واضحة في دخول المسافر مع اليه الرجل - الجذع في حركة دوائر منتظمة ووصولهما الى ذروة من التالف .

واذا كانت القصة تنتهي بتخلي المسافر عن حقييته واوراقه وتخلي الرجل - الجذع عن حصيرته ، فان ذلك يفتح لنا مجال الترفب للخطوة التالية التي ستتبع ذلك التالف .

ما يمكننا قوله في النهاية ، هو ان اندرية شديد استطاعت من خلال الرمز ان تنقل لنا حالة واقعية يتنازعها القلق والاضطراب ، وقد وجدت خلاصها في توحيدها بذلك المتصق بموقعه ، الطهثن لثباته .

بيروت